الصمت العربي المتجانس

خيري منصور

عندما كنا في العام ١٩٤٨ نتجرّع الهزيمة سماً في الحليب، كان رهان الآباء على التاريخ، وكنا أجنّة المرحلة الموعودة، يومها خرج من بيننا من رأى جمرة في عمق الرّماد، قالوا: الجيوش المملوكة والعتاد المعطوب، وقالوا: ليكن، ليتهرأ الخيط الرثّ في النسيج، فالمهزوم ليس (نحن) بل من حارب عنا وفكر عنا وحلم لنا وعنّا...

ومثلما كان لهزيمة (١٩٤٨) مردود سياسي خلق انقلاباً نوعياً في بُنى الحياة العربية، كان لها مردود ثقافي هو من السعة والفاعلية بحيث لا نزال نتكاثر مثقفين وكتاباً على هوامشه، في الشعر والرواية والمسرح كما في الأنشطة الرّوحية الأخرى. كان للقضية الأم اشعاع هائل، مجال اجتذاب لا حدود له، ولعل واحداً من أهم جذور التحديث في ثقافتنا يعود الى الهزّة العنيفة والزلزلة القومية التي بدأت بعد النكبة. كانت خمسينات القرن تمور بحيوية لم يعرف لها تاريخنا الحديث مثيلاً واستحال عبرها الأدب وعداً لصحراء الشوق والترقب، ثم ماذا؟

لا يغرينا الاختزال (إحدى سمات تفكيرنا اليوم) بالوثوب دفعة واحدة الى الفضيحة التاريخية التي كانت تنتظر أسبوعاً حزيرانياً للكشف عنها، لكننا على أية حال تجرّعناها ثانية وقضمناها كتفاحةٍ عفنة، ومن كانوا أطفالاً خبروا «سمّ الحليب»... كبروا وتناسلوا، وما خطر على بالهم أنهم يقدمون وليمة لأعداء التاريخ.

من قاع الهزيمة الثانية، افترقنا، بين من أدمنَ واستمرأ الهرب، بعد أن تحولت لديه الهزيمة الأولى الى (مصل) وبين من أشرقوا في ظهيرة العرب السوداء، وراهنوا مجدداً: قاتل أو قاتل... بعد أن عرفوا أن القتلى (الشهداء) يحاربون بطريقتهم، ولصمتهم جلبة ثمة من يصغي إليها.

في بيروت عاصمة لا لبنان وحده، وإنما التاريخ العربي المعاصر، كان المحك ناصعاً، لا مراوغة ولا التواء، مع أو ضد، ولم يسبق للصمت أن كان منحازاً للجريمة كما كان في بيروت...

هل كانت بيروت حقاً حصيلتنا؟ هل كانت كثافة وجودنا وقد تاخمت الموت قرابة ثلاثة أشهر؟

للكاتب إجابته التي تستغرق زمناً، وللمواطن إجابته حتى لو كانت تهشيماً للمرآة...

لا أدري لماذا تلحّ عليَّ حكاية الفارس الأسود، عنترة الذي مثّل ولا يزال نزوع البطولة لدى العادي من النّاس، فهو لم يتحرك لنجدة عبلة إلا حين وعدته القبيلة بأجمل ما يمكن أن يوعد به شعب: كرّ وأنت حرّ!

شعبنا الكثير ـ القليل حدّ الفجيعة ـ لم يكرّ، محروم حتى من التعبير عن عواطفه، لهذا أذهلنا الصّمت المتآمر، وعلينا كمثقفين أن نرفض قبول (الصمت العربي المتجانس)، علينا أن نعيد النظر حتى بسؤالاتنا القديمة، فكيف أجوبتنا، شهداء بيروت وما حولها من فلسطينيين ولبنانيين يمتلكون حقّ إعادة التسليح للحرب الطويلة، وهذه مهمة عسيرة حتى عندما يستوعبها المثقفون.

بغداد